البيت نواة المجتمع

أولئك الذين بلغوا منا الخمسين أو تجاوزوها يعرفون ذلك البيت القديم الذى كان الرجال ينفصلون فيه عن النساء ، والذى كانت تجتمع فيه السلطة فى يد الأب — ذلك البيت الذى يمكن أن نسميه " بيت دكتاتوريا " حيث سلطة الأب هى السلطة العامة عرفا وقانونا . وكلنا يذكر تلك " المطرة " بجوار الباب الخارجى حيث كان يقعد الأب فيتناول عشاءه مع صبيانه أو مع الأعضاء الكبار من عائلته من الجنس الخشن دون الجنس اللطيف . وما يتبقى من العشاء يرد إلى البيت حيث يأكل سائر الأعضاء من الجنس اللطيف فى انفصال وعزلة .

وقد يكون فى وصف هذا البيت بأنه " بيت ديكتاتورى " شىء من المبالغة . ولكن لا شك فى أن الأب كان ديكتاتورا فى مظهره وسلوكه ، وكان المجتمع المصرى أيضا ديكتاتوريا .

وكما يكون البيت يكون المجتمع . ولا يمكن بتاتا أن نؤلف مجتمعا ديمقراطيا إذا كان البيت ديكتاتوريا . لأن البيت هو نواة المجتمع . فإذا حصرنا السلطات جميعها فى يد الأب وجعلنا الزوجة والأولاد خاضعين خضوعا أعمى لرأيه فإننا لا ننتظر من هؤلاء جميعا إلا أن يرضوا قانعين بمجتمع استبدادى تتركز السلطات فيه فى يد ديكتاتور .

ولذلك يجب اذا شئنا مجتمعا ديمقراطيا ان نوجد العائلة الديمقراطية . يجب عندئذ أن نجعل الديمقراطية معيشة تمارس وليست مذهبا أو مبدأ نؤمن به . فنحن نعرف أن المجتمع الديمقراطى هو ذلك الذى يعبر عن ارادة الأمة ويطالب كل فرد فيها بتبعاته السياسية والاجتماعية ، ويجعل سلطة الأمة هى العليا وأسلوب الحكم فيها هو الاسلوب الذى ترضاه . وكذلك يجب ان يكون البيت الديمقراطى . بل يجب أن تكون الديمقراطية فى البيت هى الاساس الذى تبنى عليه الديمقراطية فى المجتمع . ونحن هنا بالطبع ننشد امنية لما تتحقق . فان الديمقراطية حال مثلى تحتاج الى ان ترتفع المستويات الثقافية والاقتصادية حتى يتمكن كل فرد فى الامة من تحمل التبعات التى يقتضيها النظام الديمقراطى . ولكن مع ذلك يجب أن يكون البيت هو الاساس ، وان تحقق امنية الديمقراطية فى البيت كما يراد تحقيقها فى الأمة بل قبل تحقيقها فى الأمة .

حضرت من مدة قريبة مناظرة بين بعض الشبان والآنسات عن حق التصويت والانتخاب : هل يجب منحهما للمرأة اسوة بالرجل ؟ ولم يخطر ببال المتناظرين أن هذين الحقين انما يراد بهما ايجاد برلمان . وان غاية البرلمان الأصلية هى تقرير الميزانية للدولة ، وما ينطوى

عليه هذا التقرير من فرض الضرائب أو زيادتها أو نقصها وتعيين الايراد والمصروف لكل مصلحة . ولكن اذا نحن سلمنا بأن البيت هـو نواة المجتمع فهل يمكـن أن نسلم أيضا بان اقتراح مثل هذين الحقين للمرأة يجب أن ينطوى على حق المرأة فى البيت فى الاشتراك فى ميزانيته وأن "الحساب الجارى" فى البنك مثلا باسم الزوج يجب أن يكون أيضا باسم الزوجة وأن البيت يجب ان يكون له "برلمان" لا يبت فيه شأن الا باشتراك جميع الأعضاء ؟

إن البيت الديمقراطى الذى يؤدى فى النهاية إلى مجتمع ديموقراطى هو البيت الذى لا يعرف العقوبة الاستبدادية . هو البيت الذى يؤمن بأن العقوبة جريمة . هو البيت الذى تؤسس فيه جمعية للأطفال والصبيان تكون البذرة الديموقراطية الأولى فى حياتهم الاجتماعية . وهذه الجمعية هى التى تقرر "الجزاءات" ولا تقول العقوبات . فيتحمل الفرد جزاءه وهو راض لأنه هو نفسه عضو فى هذه الجمعية ، وهو عندئذ لا يكره أحدا من إخوته أو من أبويه لأنه لا يجد هدفا شخصيا لهذه الكراهة . وهو لذلك ينشأ بلا أحقاد أو إحن .

والبيت الديمقراطى هو الذى يشترك فيـه الزوجان اشتراك المساواة فى ميزانية البيت والحساب الجارى والمشروعات المـالية والاجتماعية . وهو البيت الذى يحاول فيه الزوج — فى بيئتنا الحاضرة — رفع زوجته الى مستواه الثقافى والاجتماعى حتى تصير المساواة حقيقـة واقعة بل حقيقة نافعة . هو البيت الذى يجتمع فيه الجنسان مع ضيوفهما فى ضيافة مهذبة نيرة مثمرة . ثم هو أيضا البيت الذى يعامل الخدم بالاحترام الذى تصنه الكرامة الإنسانية . وهنا يجب أن نذكر أن بعض الأمم ألغت اسم الخادم واستبدلت به اسم « أمين البيت » صيانة لكرامتـه . وأذكر أيضا ما أعرفه عن صديق أمريكى فى القاهرة يدعو خادمه المصرى مع زوجته وأولاده إلى الغداء عنده ثم يقف هو — أى هذا الأمريكى — مع زوجته وأولاده لخدمتهم جميعا . ولست أكبر من القيمة المـادية لهذه الدعوة ، لأنى لا أتعامى عن النظام الذى نعيش فيه وأنه يقتضى وجود السيد والخادم . ولكنى أيضا لا أتعامى عن القيمة الرمزية لهذا العمل . وهى قيمة ديمقراطية فى أمة تؤمن بالنظام الديمقراطى وتقول بالمساواة فى الحقوق المدنية والدستورية والكرامة الإنسانية بين السيد والخادم .

يجب أن نجعل البيت نواة المجتمع . فإذا كنا نريد مجتمعا تسوده الحرية والإخاء والمساواة فإننا يجب أن نعمم هذه الفضائل فى البيت . وأن نبنى العائلة على علاقات الشرف مع الروح الديمقراطى فى جميع معاملاتنا بعضنا مع بعض وجميعنا مع الأجانب . وقد تكون هناك أخطار من هذه الحرية تمنح للصغار ، أو من المساواة الجنسية تمنحها للمرأة التى ليست كفئا لها . ولكن عالمنا هذا محفوف بالأخطار . والنظام الديمقراطى كذلك لا يخلو من الأخطار سواء فى البيت

أو المجتمع . ولكن العبرة فى جميع النشاط الإنسانى بالنتائج . وما دامت لدينا كمية ساحقة من الأمثلة الصالحة فلا نبالى بالعدد القليل من الأمثلة السيئة .

ونستطيع أن نبرز بالموازنة مساوئ البيت الاستبدادى ومحاسن البيت الديمقراطى ، ففى الأول نجد أن السكينة تعم البيت ولكنها سكينة السجن المفتعلة ، ونجد الخوف والخجل والرياء . والصبى الناشئ فى هذا الوسط يحسن الطاعة ولكنه قد ينفجر يوما ما ، لأن الطاعة هنا كانت كظما وكبتا ، كما نرى عند أولاد البخلاء حين ينفجرون عقب وفاة والدهم فيبذرون ماجمع لهم ، لأن الكظم يؤدى الى الانفجار ، وكذلك الشأن فى أبناء الأب المستبد أو قرينة الزوج المستبد جميعهم يعيشون فى طاعة الكظم ، وهم ينشأون على خوف أو خجل ، والخجل هنا خوف ملطف ، وهم يواجهون الدنيا فى جهل وليست لهم قدرة على الابتكار ، أما البيت الديمقراطى ، فإنه يربى الشخصية قبل كل شىء ، هذه الشخصية التى نراها حتى فى الصبى يلعب وحده ويبتكر ويتحدث ويقابل الضيوف كأنه رجل صغير ، وهو يعرف الاستقلال لأنه تعوده . ولذلك يمارس هذا الاستقلال ، وهو يجرؤ على ارتياء الرأى ، واذا عاونته الظروف فإنه ينشأ عبقريا ، ثم هو بعد ذلك يصير عضوا نافعا فى المجتمع يحس التبعات السياسية والاجتماعية وأنه "راع مسئول عن رعيته" لأنه كان كذلك فى البيت ، أما ذلك الذى نشأ فى بيئة الاستبداد وانكر عليه الرأى ولم يعش فى جو الحرية والمساواة فإنه يرضى بأية حال اجتماعية ويقبل بيكتاتور كما سبق أن قبل الأب المستبد لأن البيت نواة المجتمع .

من وصايا الإمام على

لاعب ابنك سبعا ، ثم أدبه سبعا ، ثم صاحبه سبعا ثم ألق حبله على غاربه .